

ملاحم تأثير اللغة العربية في اللغة الإسبانية في العصر الأندلسي الإسلامي

(دراسة تاريخية)

Features of the influence of the Arabic language on the Spanish language in Undlus Islamic Era (Historical Stydy)

د.عبدالمجيد البغدادي*

د كفايت الله همداني**

Abstract

In the last decade of the first century, Muslims crossed into Andalusia and established the Islamic state after the conquest. Islam has become an official religion in Andalusia and in many languages and dialects, where Latin and Romanian were considered official and municipal languages before the conquest. As for the general Andalusians, they spoke the tongue that was written in these two languages, which was the language that when the Arabs heard it, they called it "the people of Andalusia".

When the Arabs came to Andalusia, entered with them the Arabic language, and popularized among its inhabitants, and people accepted it and the difference between that between Muslims and non-Muslims, spread the Arabic language between the private and public, and began to speak the people of the country in Spanish, Latin and Arabic alike. : As Islam spread rapidly on the peninsula, the Arabic was also spread more widely among the inhabitants of this country.

Keywords: Andalusia, Latin, Romanian, habitants, Spanish.

*أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية ، جامعة العلامة إقبال المفتوحة ، إسلام آباد.

** رئيس قسم اللغة العربية، الجامعة الوطنية للغات الحديثة، إسلام آباد

المدخل:

كان المجتمع الأندلسي مكونة من عناصر شتى من بادي بدء، قد كان يسكن الإيبيريون والإغريق والقرطاجنيون واليونانيون والوندال والمهود والقوط متعاقبين ومتابعين، ثم جاء الفتح الإسلامي ونزل المسلمون بالأندلس وكانوا تألفوا أيضا من العرب (من القحطانيين والعدنانيين) والبربر (من قبائل مختلفة متنافرة)، فلما استتب الفتح في الأندلس اتجه أهل الشام والعراق ومصر وغيرهم من البلاد الإسلامية إلى الحلول بها. يذكرهم المقري قائلا: "لما استقر أهل الإسلام في الأندلس و صرف أهل الشام من العرب إلى الحلول بها" (1) يؤكده جان في تأليفه قائلا:

"The ruling group was composed of Arabs, Syrians and Egyptians with Berber troops, all of the trustworthiness of the uncertain others". (2)

كذا ضم المجتمع الأندلسي عناصر البشرية المختلفة وذوي العقائد المتنوعة من العرب والبربر وأهل الذمة من النصارى والمهود من الإيبان، وكان منهم أهل البلاد الأصليين، ومنهم الفاتحون الأتون من المشرق ومن أفريقيا ومنهم الماليك.

ولما جاء هؤلاء العرب إلى الأندلس من المشرق في صورة الفاتحين مع طارق بن زياد أو حضروا مع موسى بن نصير المساعدة الفاتحين الأوائل ومتابعة تقدمهم في المناطق الأندلسية من القرن الأول للهجرة أسسوا الدولة الإسلامية بعد الفتح وانشروا دينهم فيما فتحوه من البلاد، وأقاموا حضارة رفيعة فيها، فتقدمت هذه البلاد بسرعة فائقة ثقافياً وعمرانياً كأن الفتح كان علمياً وثقافياً فضلاً عن فتح عسكري. و كانوا شديد العناية بالنظافة لمأكلهم وملابسهم ولكل شئ ما يتعلق بهم، وكانت النظافة أصبحت عادة بل فطرة ثانية لهم كما يذكر صاحب النفع عنهم قائلا: وأندلسيون يعتنون بنظافتهم أشد نظافة. (3)

وكان الأندلسيون سواء مسلمين أو غيرهم قد عرفوا بحسن إدارتهم وتديبيرهم في شؤون الحياة اليومية وكانوا يحفظون لما في أيديهم مخافة من ذلك السؤال، ولذا تروي قصة شهيرة لاحتياطهم في المصادر التاريخية - اكتفي هنا تلخيصها وتلميح إليها وهي أن ولد أندلسيا لما أعطى رداءه ضيفا غربيا أوى في بيته في الليل البارد، لم يطب له المنام طول الليل حتى يأخذ رداءه من الضيف مخافة من ذهاب الضيف بالرداء وهونائم (4) و

كذلك كان جميع الأندلسيون يستقبحون التسول، فإذا رأوا سائلاً قادراً على العمل، يستنجد الناس في الطرق و الشوارع، فسبوه وأهانوه إلا أن يكون متعذراً. وكانوا من محبي الجمال والأناقة في الملابس والمآكل والمباني، أبداعوا في الفنون والصناعات وبخاصة في صناعة النسيج، أماكان زعيم فأغلبهم اعتادوا أن يسيروا في الشوارع ورؤسهم عارية إلا القضاة منهم، يقول الدكتور مصطفى الشكعة: "وكان لا

يغطى رأسه بالطيلسان إلا الشيوخ المعظمون".⁽⁵⁾ ويقول الدكتور على محمد سلامة: "واشتهر الأندلسيون بصفات اختصوا بها وتميزوا بها عن غيرهم من الأجناس مثل النظافة في ملابسهم ومظهرهم أغنياء وفقراء وتعودهم على ترك رؤسهم جميعاً عارية".⁽⁶⁾ لقد كان الشعب الأندلسي بجانب هذه الصفات المذكورة شعباً يقبل على العلم، وكانوا قد عرفوا أيضاً بميلهم إلى المجالس والفكاهة واللهو والغناء بيسر حياتهم ولينها، وكان عامة الشعب وخاصتهم مشغوفين ومحبين بساع الغناء جميعاً ومولعين به، لذلك انتشرت الغناء والموسيقى في الجزيرة انتشاراً بارزاً ووفد عليها مغنيات وموسيقيات وراقصات في الشرق كقلم وعلم وفضل وغيرهن كثيرة، وجاء إلى الأندلس من الشرق في عهد عبدالرحمن الثاني الأستاذ زرياب الذي أسس مدارس الغناء بها وعلم الناس فيها وخاصة الجاريات، فتخرج من تلك المدارس عدد كبير من المغنيين والمغنيات.

قداعتنق أكثر من الإسبان المسيحيين دين الإسلام لما شاهدوا فيه من الكرامة والصدقة، ودخلوا فيه كافة، فأصبح الإسلام ديناً رسمياً بالأندلس وتخلّفت سائر الأديان من هذا الدين السائد، وكانت اللغة العربية أخذت تسير جنباً إلى جنب مع الإسلام حيث حل، فأصبحت الأندلس بلداً تتعايش فيه الأديان والأجناس، تتعدّد فيه اللغات واللهجات حيث كانت اللغة اللاتينية والرومانشية تعدّان لغات رسمية وبلدية قبل الفتح. وكانت الأندلس زاهرة بأداب اللغتين التي كان يقوم عليها رجال الدين آنذاك. وأمّا عامة الأندلسيين كانوا يتكلمون اللغة التي كانت مركبة بتينك اللغتين المذكورتين وهي اللغة التي حين سمعها العرب، سموها "عجمية أهل الأندلس"، يذكر عنها الأستاذ منندت بدال: "أن اللغة التي كان يتكلمها أهل إيبيريا لايمكن تعرفها إلا على وجه التقريب، وكل مايمكن إنها كانت تضم ألفاظاً قليلة من لغة القوط، أما بقيتها فكانت مختلفة من اللاتينية العامية"⁽⁷⁾ Vulgar Latin.

ولما جاء العرب إلى الأندلس و دخلت معهم فيها اللغة العربية وشاعت بين سكانها، وأقبل الناس عليها ولا فرق في ذلك بين مسلم وغير مسلم فانتشرت اللغة العربية بين الخاصة والعامة، وأخذ سكان البلاد يتكلمون بالإسبانية واللاتينية والعربية على السواء-يذكر الدكتور أحمد هيكل في كتابه قائلاً: انتشر الإسلام في أسرع وقت فيها، وانتشرت اللغة العربية بين أهل البلاد".⁸⁾

ملامح تأثير اللغة العربية في اللغة الإسبانية:

على مرور الزمن تقدمت اللغة العربية مع دين الإسلام و صرعت اللغات الرسمية بها حتى أصبحت نفسها لغة مهيمنة في البلاد لأنها كانت لغة العرب وكانوا أمة فاتحة غالبية، فنالت لغتهم انتشاراً واسعاً في البلاد المغلوبة وأقبل الناس عليها إقبالاً كبيراً نظراً لكونها لغة الفاتحين والغالبين ، "لأنه معروف أن المغلوب دائماً يحاول أن يحاكي الغالب"⁹⁾

عدّه الدكتور شوقي ضيف سبباً من الأسباب لانتشار اللغة العربية بين سكان الأندلس، وكان لشيوعها أسباب شتى .

كما كتب محمد كرد على في كتابه: اللغة العربية أصبحت من شعائر الإسلام وهجر الأمم لغاتهم في جميع الامصار و الممالك و صار اللسان العربي لسانهم، حتى شاعت في جميع أمصارهم ومدنهم وصارت الألسنة العجمية دخيلة فيها وغريبة عنها".¹⁰⁾ ويدل على ذلك قول صاحب أم اللغات نقلته ليلى صديق في مقالته عن اللغة العربية: يرى بعض اللغويين أن اللغة العربية تمتاز بحيوية نفاذة ، وفي الشام باللغتين السريانية واليونانية وفي مصر باللغتين القبطية واليونانية ، وأهل كل هذه البلاد يان شرق وغرباً زابت لغاتهم ألسنتهم وحلت مكانها العربية .¹¹⁾

هكذا في الأندلس اللغات التي كانت تسيطر عليها قبل دخول العربية قد تأخرت عنها ونسى أبنائها الأندلسيون لغاتهم وتركوها خلف ظهورهم، وتعلم اللغة العربية من أسلم منهم ومن لم يسلم سواء، وبرعوا فيها، وطالعوا الآداب العربية من الشعر والنثر وقارنوها بأداب لغاتهم الأصلية فوجدوها أغنى وأزخر من آدابهم ، فأتقنوا فيها و حفظوها في صدورهم حتى أصبحوا يكتبون كتبهم ورسائلهم باللغة العربية ويقرضون الشعر ويحسنون فيه ويستخدمونها كلغة الأم لهم إلى أن يتعاقد بعضهم بعضاً بالعربية فقط ،

صور محمد كرد على هذه الرغبة الشديدة للأندلسيين في العربية قائلاً: بدأ أهل البلاد يتكلمون الإسبانية والبرتغالية والعربية بالطلاقة وأخذوا لايتعاقدون فيما بينهم إلا في اللغة العربية⁽¹²⁾.

يؤكد الدكتور جودت الركابي قائلاً: أن اللغة العربية أصبحت لغة الأندلس الرسمية، وهذه اللغة كانت تجرى الرسائل وكان رجال الدولة يقتربون من ينطق اللغة العربية⁽¹³⁾.

ولم تمض فترة إلا أن أصبحت اللغة العربية لغتهم الوحيدة التي يتكلمون بها ويستخدمونها في حياتهم اليومية، وكانت لغاتهم الوطنية كأنها اندثرت بينهم لأنهم هجروا التحدث بها وتركوا قراءة كتبهم المقدسة بغير لغة الضاد واعتبروا اللغة الإسبانية واللاتينية لغة ثانية واللغة العربية اللغة الأم، وبها قرئت في الكنائس كي يفهم أبناء الأندلس الناشئين الذين لا يعرفون لغتهم الأصلية، ويتكلمون فيما بينهم باللغة العربية فقط ويعاملون باللغات التي كانت سائدة في الأندلس منذ قرون طويلة قبل دخول المسلمين ولغتهم فيها، لغة أجنبية وعجمية، ويستدل على ذلك محمد كرد على قائلاً: اللغة العربية شاعت في الأندلس وأصحاب الكنيسة أجبروا بترجمة صلواتهم في العربية ليفهمها المسيحيون فبدأوا يقرؤون آدابها و يتغنون بأشعارها ويكتبون فيها كأبنائها ويعجبون ببلاغتها إعجاب أهلها بها⁽¹⁴⁾.

ويقول مؤلف المفضل في تاريخ الأدب العربي أيضاً: "انتشرت اللغة العربية بين الخاصة والعامة، ودخل كثير من ألفاظها في اللغة الإسبانية، وهجر الأسبانيون اللغة اللاتينية واشتغلوا باللغة العربية وآدابها حتى أصبحوا لا يكتبون بغيرها، صار شبانها لا يعرفون غير لغة العرب حتى اضطر أحد القساوسة من أهل اشبيلية إلى أن يترجم التوراة إلى اللغة العربية ليقراها تلاميذه كما ترجم غيره من القسيسين كتب الكنيسة إلى لغة العرب"⁽¹⁵⁾.

انتشرت وغلبت اللغة العربية في أسبانيا بشكل واسع وأصبحت لغة الثقافة والتقدم لدى الأسبان، لكن كان انتشارها و شيوعها بين أبناء المسيحية قد يشق على القساوسة ويسوئهم حتى شكا القارو (Alvaro) أحد منهم إلى قومه متالماً قد ذكر شكواه المؤرخ الشهير دوزي في كتابه مفصلاً⁽¹⁶⁾ ونقله أصحاب التاريخ الأندلسي كما يذكر أحمد

هيكل وشوق ضيف في كتابهما، ويجب على أن اكتب الشكوة حرفيا كي يتبين كيفية اللغة العربية في الأندلس آنذاك و هو بقول ألقارو القرطبي ، والحسرة تقطع نياط قلبه: بأن إخواني في الإسلام يجدون لذة في اللغة العربية وشعرهم ، وحالا الشبان النصرارى لا يعرفون اليوم إلا اللغة العربية⁽¹⁷⁾.

قد اختار بعض الإسبان الذين فضلوا البقاء على دين المسيح (وهم قلة بالنسبة للذين وحدوا الله وأسلموا) لغة العرب أيضا ، وزحزحت هذه اللغة لغات الأندلس القديمة عن عرشها و حلت محلها بل تفوقت عليها وصارت اللغة الرسمية الوحيدة للبلاد وظلت وحدها لسانا لهم إلى قرون طويلة.

فبعد أن نسي الأندلسيون لغة آبائهم الأصلية وتضلعوا من اللغة العربية تضلعا بالغة ، فكانوا يكتبون بها ويقرضون الأشعار فيها ولم يتركوا بابا إلا جالوا فيه ، كانوا يدفعون أبناءهم إلى تعلم العربية وعلومها فقط، ليرعوا فيها ويستخدموها كأبناء العرب، كما يقول الدكتور لطفي عبد البديع في تاريخه: "عنى الأندلسيون باللغة والأدب منذ عصر مبكر فكانوا يروون أبناءهم الفصيح من المنثور والمنظوم ليربوا فهم الملكات الأدبية جارين في ذلك على ألسنة العربية القديمة"⁽¹⁸⁾.

فصارت العربية لغة الثقافة والعلم فينهلون منها بشغف ورغبة ويحرصون على تعلمها والنبوغ فيها فظهر منهم أدباء وأدبيات، وشعراء وشاعرات، و لغويون ولغويات وقد كثروا عددا لا يحصى، واشتهر منهم ابن زيدون، و ابن خفاجة، وابن سهل، و ابن وهبون، وابن عباد، ولسان الدين بن الخطيب وغيرهم كثير من كبار الشعراء، كما اشتهرت نساء شواعر في الأدب واللغة وخاصة في الشعر كولادة سيدة الشاعرات بها ، وحسانة ، وحفصة، و أم العلاء وغيرها كثيرة. فبقت العربية زاهية إلى قرون ومثمرة ثمار كثيرة ومؤثرة في نفوس الأندلسيين، وأما اللغات البلدية الأخرى التي كانت بقت في أرض الأندلس في أسوء الحال كانت تتأثر باللغة العربية أيضا ودخل كثير من الألفاظ العربية فيها، وكانت العربية قد أبدعت أساليب جديدة في الأندلس وأذخرت الأدب العربي وأحدثت فنونا فيه كالמושحات والأزجال ، وهي توجد إلى اليوم في الأغاني الشعبية للأندلس، وفي المصطلحات العلمية واليومية، ولها أمثلة كثيرة وكذلك ارتقت وسادت العربية في الأندلس .

لكن مما يوسف كل الأسف، لما سقطت الدولة الإسلامية في الأندلس وقامت الدولة المسيحية مرة ثانية، نسي المسيحيون ما كانوا عاهدوا من المسلمين حين أخذوا مفتاح صرح غرناطة ونسوا ماكان عامل المسلمون معهم خلال ثمانية قرون في دولتهم ، شدد الحكام المسيحيون بالمسلمين أشد العنف وتنصروهم بالإكراه ونفوههم من الوطن وفرضوا الحظر على من بقي منهم أن يلبسوا ثيابا إسلامية وأن يأذنوا للصلوات وبدأوا في محاربة اللغة العربية وحرموا على المسلمين أن يتكلموا باللغة العربية فيما بينهم، وفرضوا عليهم التحدث باللغة الإسبانية فقط ، ومن وجد معه كتاب بالعربية عوقب أشد العقاب وأحرقت مئات آلاف من الكتب العربية والمكتبات الذخرة من الكتب العلمية والأدبية والفلسفية، فاللغة العربية التي سادت في أسبانيا لقرون طويلة واعتبرت - وعن حق- هي لغة الثقافة والعلم والأناقة فقد منع تداولها منعا باتا وتم التشكيك بكل من يلجأ للتحدث أو القراءة بها.

يذكر الدكتور محمد خالد مسعود في مقالته الأردنية "ضريبة" فرضت في سنة 1526ء على المسلمين الذين كانوا يريدون أن يتكلموا لغتهم العربية ويرتدوا ثيابا عربية ، وكان قدر هذه الضريبة ألفين قرشا من الذهب الخالص.⁽¹⁹⁾

كذلك يكتب محمد كرد على أحوال المسلمين المؤلمة بعد سقوط الأندلس مفصلا فيقول: "في سنة 155م منع فليب الثاني استعمال اللغة العربية وأراد أن تنزع من أسمائهم التراكيب العربية."⁽²⁰⁾

ذكر هذه المظالم المسيحية كثير من المؤرخين المستشرقين والمسيحيين معترفين بها ، أذكر هنا قوة لواحد منهم وهو يقول:

"Forbidden to meet in mosque, to observe Islamic rituals, to possess books in Arabic, or to use the Arabic language, moriscos withdrew into the private homes or small kinship groups where they might more safely continue their language".⁽²¹⁾

شاهدت اللغة العربية مراحل مختلفة في بلاد الأندلس، نشأت وترعرعت وبلغت قمة ازدهارها في الدولة الإسلامية وهي التي كانت سقطت وفرضت عليه الحضرة تارة والضرائب تارة أخرى بعد استرداد الأندلس من المسلمين لكن رغم ذلك بقيت هذه اللغة في أرض الأندلس إما مكنونا في الصدور والبيوت وإما في صورة المفردات التي قد دخلت في اللغات الأسبانية الدراجة كأسماء المدن (Gordoba قرطبة) Seville (اشبيلية) Valencia(بلنسية)، وكلمفردات المتعلقة بالشئون المختلفة في مجال الري والزراعة نحو Acena(السانية)Alberca (البركة) Albuhera(البحيرة)Aceite(الزيت)Adaza(عدسة) غيرها كثيرة لا تحصى.²²)

واستدل على ذلك ما استدلت الكاتبة سلمى الحفار قائلة: المهتم في استخدام اللغة العربية هو استمرارها وأثرها في اللغة الإسبانية إلى يومنا هذا. بعد مايزيد عن خمسة قرون من سقوط الدولة الإسلامية عادت إلى اللغة العربية حياتها عادت بصورة منهج التدريس في جامعات أسبانيا من كليات مجربط و غرناطة وبرشلونة و صلمنكة و غيرها. لكن التدريس فيها كان مهملاً والمدرسين كانوا أقلّة، لكن هذا إشارة وتلميح إلى أن العربية كادت تدخل في أسبانيا كافة كما يذكر محمد كرد علي في كتابه قائلا: "ولما استلمت الحكومة الأسبانية سنة 1857 زمام إصلاح التعليم من دون رجال الدين والملك أو الإشراف رحبت اللغة العربية حتى كادت تعود إليها حياتها التي كانت لها في شبه الجزيرة أسبانيا من القرن الثاني عشر إلى القرن الخامس عشر".⁽²³⁾ ولم يمض قرنان كاملان من هذه الجهود المذكورة حتى سمعنا أن تعود العربية إلى فصول الدراسة في أسبانيا وجاء قرار إدراج العربية بعد سنوات طويلة من الانتظار. وما زالت تشدد الجهود لارتقاء العربية في أسبانيا إلى أن أسس موقع عربي فيها سنة ٢٠٠١ وهو أول موقع باللغة العربية في أسبانيا قام بتأسيسه الأستاذ أحمد شكري ليكون نافذة إسلامية تعكس أشعة الحضارة العربية الراسخة جذورها بالأندلس. و عنى الأندلسيون بالعربية عناية شديدة وكان اهتمامهم في هذا المضمار واسعاً فقد أغرموا اللغة العربية بأنفسهم وتعلموها بعشق منقطع النظير حتى اعتبروها اللغة الأم وأهملوا بلغاتهم الأصلية وهجروا التحدث بها وتعودوا بالتكلم بالعربية.

هكذا حظيت اللغة العربية في الأندلس بمكانة مهمة خلال القرون التي حكم فيها العرب تلك البلاد، وصارت لغة رسمية في ظل تلك السيادة الإسلامية، وذلك لأن اللغة العربية متميزة عبر العصور بحيوية نفاذة بحيث أنها لم تنازل لغة أيام الفتوحات الإسلامية إلا ظفرت بها، فتأثير العربية في غيرها من اللغات كبير.

الحواشى

- (1) نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد المقرئ، تحقيق: إحسان عباس، ج:1، ص:29، دار صادر، بيروت 1968.
- (2) The Oxford History of Islam by John.L.Esposito,P:317 ,Oxford University Press ,New York
- (3) نفع الطيب، ج:1، ص:208.
- (4) المرجع السابق، ج:1، ص:209.
- (5) الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، الدكتور مصطفى الشكعة، ص:84، دارالعلم للملإين، بيروت، 1979.
- (6) الادب العربي في الأندلس، الدكتور على محمد سلامة: ٣٨، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 1989.
- (7) الحركة اللغوية في الأندلس (منذ الفتح العربي حتى نهاية عصر ملوك الطوائف)، مطلق، ألبير، حبيب، ص:٣٠، المكتبة المصرية، بيروت، 1997.
- (8) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، أحمد عبد المقصود هيكل، ص:٣٩، الطبعة العاشرة، دار المعارف، القاهرة، 6.198
- (9) عصر الدول و الإمارات -الأندلس-، الدكتور شوقي ضيف، ص: ١٢٩، دارالمعارف، القاهرة، 1994.
- (10) غابر الأندلس و حاضرها، محمد كرد على، ص: 43-44، المكتبة الأهلية، مصر، 1923.
- (11) تأثير اللغة العربية في غيرها من اللغات، لىلى صديقى، ص: ٧٧، مجلة حوليات التراث ع/4006/05م جامعة مستغانم، الجزائر.
- (12) غابر الأندلس و حاضرها، ص:5.
- (13) في الأدب الأندلسي، الدكتور جودت الركابي، ص:43، دار المعارف، القاهرة، 1980.
- (14) المرجع السابق، ص: ٣٨.
- (15) المفصل في تاريخ الأدب العربي، أحمد الاسكندرى وأحمد أمين، ص:٣٩٧، دارإحياء العلوم، بيروت، بدون سنة.
- (16) Spanish Islam, W.Reinhart Dozy,P:297 Frank Cass and Company,1972.
- (17) أثر العرب في الحضارة الأوروبية، العقاد، عباس محمود، ص:52، دارالمعارف، مصر، 1946.
- (18) الإسلام في أسبانيا، لطفى عبدالبديع، ص:٨٣، مكتبة النهضة المصرية، 1958.
- (19) فكرونظر(سه ماهي) خصوصى شاره "أندلس كى اسلامى ميراث" ص ١٩ مدير دصاحزاده ساجد الرحمن، اپريل - دسمبر ١٩٩١) شماره ١٠١م جلد ٢٨-٢٩، اداره تحقيقات اسلامى، اسلام آباد، باكستان
- (20) غابر الأندلس و حاضرها، ص: 156.
- (21) Spanish Woman in the golden age, by Magdalena p:41,S.Sanchez,Green Wood Press,2002.
- (22) مجلة الآداب الاجنبية، مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العربى بدمشق.
- (23) غابر الأندلس و حاضرها، ص: 157.